"المواكب" لجبران خليل جبران : دراسة نقدية

سيد مزمل رشيد*

"المواكب" لجبران: هذه مجموعة من ثنائياته الشعرية. فمواكب جبران كانت باكورة مؤلفاته الشعرية. وقد كتب حوالي سنة ١٩١٩ أي بعد ظهور كتبه الخمسة في العربية " الموسيقى" و" الأرواح المتمردة" و" الأجنحة المتكسرة" و" دمعة وابتسامة " و" عرائس المروج" وأودع فيها الشاعر تمرده على الحياة وقوانينها الصارمة وتقاليدها العمياء وشرائعها التي ترتاح اليها. أما موكب جبران فهي تحتوي أفكاره الفلسفية وآراء الاجتماعية. وهدفه الأساسي من هذه المجموعة هو التمرد والثورة على الحياة المعقدة المشوشة والدعوة الحارة للرجوع الى الطبيعة الساجدة. كان جبران يقصد بالطبيعة حياة البساطة والسهولة والبعد عن الكلفة والتأنق وقد جاءت مواكبه طريفة في أسلوبها كما هي طريفة في موضوعها وكذلك نلاحظ أن مواكب جبران كانت نتيجة لصراع في نفس مؤلفها بين جبران الشاب الذي مات ودفن في وأدى الأحلام وجبران الشيخ الذي خبر الدنيا وعرف دخائلها وجرب الناس ودرس طبائعهم ولذا جاءت مواكبه مصطبغة بصبغة التأمل والفلسفة. وأيضا جاءت بعيدة كل البعد عن مظاهر الشوق والحنين. ويقول:

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وان قبروا

---

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

وأكثـــر النـــاس الآت تحركهـــا أصـــابع الـــدهر يومـــا ثـــم تنكثـــر
فـــلا تقـــولن هـــذا عـــالم علـــم ولا تقـــولن ذات الســـيد الـــوقر
فأفضـــل النـــاس قطعـــان يسـير بهـــا صـــوت الرعـــاة ومـــن لـــم يمـــش ينـــدثر[1]

وحسب تعبير محمد يوسف كوكن:

"هو حوار بين شيخ وشاب فالأول يتبرم بما في حياة البشرية من رياء وضعف وذل وقلق ونضال دائم بين الخير والشرو الثاني يمجد الحياة في "الغاب". حيث لا خير ولا شر وهذان الصوتان من الشيخ والشاب ليسا سوى صدى النزاع الداخلي في نفس جبران ما بين إيمانه بفطرة الإنسان الإلهية وبين ما كان يبصره في حياة الإنسان بشاعة ورجع وتشويش. يفتتح الصوت الأول بأبيات في الخير والشر ثم ينتقل إل الحياة فالدين فالعدل فالحق فالعلم فالحرية فاللطف فالظرف فالحب فالجنون فالسعادة فالجسد فالموت وأمَا الصوت الثاني فتسمعه في نهاية كل جولة من جولات الصوت الأول. فإن تبرم الأول بحزن أو عبودية أو بجهل، وإن تحدث عن الحق والعدل والسعادة والموت والحياة وما إليها انبرى الثاني يقول إن ليس في الغابات شيء من ذلك بل كل فيها ألفة والصفاء وهناء لا يشوبها شيء من التناقض القائم في أفكار الناس وقلوبهم"[2]

حاول الشخص أن يرسم صورة قبيحة من صور الحياة والعقائد والتقاليد البشرية انبرى له الفتى يحبب إليه حياة الغاب حيث لا نفاق ولا اختلاف ولا عقائد ولا طبقات فيه يقول الشيخ:

والعـــدل فـي الأرض يبكـي الجـــن لـــو ســـمعوا
بـــه ويستضـــحك الأمـــوات لـــو نظـــروا
فالســـجن والمـــوت للجنـــانين إن صـــغروا

والمجـــد والفخـــر والإثـــراء إن كبـــروا
فســـارق الزهـــر مـــذموم محتقـــرو
وقاتـــل الجســـم مقتـــول بفعلتـــه
وقاتـــل الـــروح لا تـــدري بـــه البشـــر"٣

فيجيب الفتى ويقول:

لـــيس فـــي الغابـــات عـــدل لا ولا فيهـــا العقـــاب
فـــإذا الصفصـــاف ألقـــى ظلَـــه فـــوق التـــراب
لا يقـــول السَـــروهـــذى بدعـــة ضـــد الكتـــاب
إن عـــدل النـــاس ثلـــج إن رأتـــه الشـــمس ذاب
أعطنـــي النـــاي وغـــنَ فالغنـــاء عـــدل القلـــوب"٤

يتكلم الشيخ عن الموت ويقول:

والمـوت في الأرض لابـن الأرض خاتمـة وللأثيـري فهـو البـده والظفـر
فمـن يعـانق فـي أحلامـه سـحرا يبقـى ومـن نـام كـل الليـل ينـدثر
ومـن يـلازم تربـا حـال يقظتـه يعـانق التـرب حتـى تخمـد الزهـر
فـالموت كـالبحر مـن خفَـت عناصـره يجتـازه أخـو الأثقـال ينحـدر"٥

فيجيب الفتي ويقول:

لـيس فـي الغابـات مـوت لا ولا فيهـا القبـور
فـإذا نيسـان ولـى لـم يمـت معـه السـرور
إن هـول المـوت وهـم وينثنـي طـيَ الصـدور
فالـذي عـاش ربيعـا كالـذي عـاش الـدهور
أعطنـي النـاي وغـن فالغنـاء سـرُ الخلـود٦

ولكن الشيخ يهتف في نهاية القصيدة ويعبر عن هذا الصراع العنيف الذي يدور في قلبه ويقول:

العـــيش فـــي الغـــاب والأيـــام لـــو نظمـــت
فـــي قبضـــتي لغـــدت فـــي الغـــاب تنتثـــر
لكـــن هـــو الـــدهر فـــي نفســـي لـــه أرَب
فكلَمـــــا رمـــــت غابـــــا قـــــام يعتـــــذر
وللتقـــــــــادير ســـــــــبل لا تغيرهـــــــــا
والنـاس في عجـزهم عـن قصـدهم قصـروا"[٧]

والحقيقة أي جبران يثور على تقاليد الحياة البالية والسياسة التي تدعوا إلى العبودية والجور والمسكنة ويدعوا إلى الحياة المثالية الخالية من الظلم والاستبداد.

وتتكون المواكب من حوالي مئتي بيت ويزيد ويغلب عليها السمة الرومانتيكية التي ميزت كثير من أعمال جبران سواء باللغة العربية أم بالإنجليزية. وقد اراد جبران من خلالها تقديم مواكب شتى هي في حد ذاتها مسيرة البشر في المجتمع الذي يحفل بصور ضلالهم وزيفهم ومعتقداتهم التي تقتل أرواحهم. وهي في هذا دعوة الى العودة لأحضان الطبيعة وبساطتها حيث أسبغ عليها من التجسيد صفات إنسانية تجعلها فردوس الإنسان المهجور بدلا من العيش في ظل القيم الزائفة للمجتمع.[٨]

نقد العقاد على "مواكب" جبران:

نقد محمود عباس العقاد على مواكب جبران ونشرت هذه المقالة في جريدة "الأهالي" في مايو سنة ١٩١٩ فيقول الناقد الأديب محمود عباس العقاد في هذه المقالة.

"قصيدة شعرية نظمها جبران أفندي خليل جبران من أدباء السوريين في

أمريكا وطبعها في كتاب مستفل كبير الصفحات مزدان بالرسوم الرمزية. ويظهر أنه جرى في وضعها وطبعها على أسلوب رباعيات الخيام لأنه وضعها في المعاني التي طرقها الخيام وطبعها على الشكل الأنيق المصور الذي اختاره الناشرون من الإنجليز والأمريكان لطبع رباعياته"[٩]

ولكتاب مقدمة بقلم نسيب أفندي عريضة نراها من ألزم المقدمات لأنها فسرت من أغراض القصيدة ما لم تفسر أبياتها ومنها قوله " ليتصور القارئ قبل إقدامه على مطالعة الكتاب مرجا واسعا في سفح الجبل هنالك يتلاقى رجلان على غير ميعاد أحدها شيخ والاخر فتى. الأول خرج من المدينة والثاني من الغاب أما الشيخ فيسير بخطى ضعيفة متكئا على عصاه بيد مرتجفة وفي غضون وجهه وشعره الشائب المسترسل ما ينم على أنه عرك الدهر وعرف أسرار الحياة ومخبأتها فذاق منها مرارة أو صلته إلى التشاؤم منها. يصل هذا الشيخ إلى المرج فيستلقى هنالك على العشب قصد الراحة. فإذا فتى جميل غض الأهاب قد لوحت الشمس بشرته وأكسبته الحياة جذلا وانبساطا خرج من الغاب يحمل ناية فيسير حتى يصل إلى مكان راحة. الشيخ يضطجع بجانبه. فلا تمر دقيقة سكون الا تراهما قد بدءا بالحديث فيأخذ الشيخ بابداء نظراته في الحياة كما يراها طرفه المتشائم وخبرته المحنكة. فيرد عليه الفتى شارحا عن الحياة كما تراها عليه الجذلة المتفائلة "[١٠]

ثم يقول العقاد عن المقدمة التي كتبها نسيب عريضة " هذا هو محور القصيدة كما فسره صاحب المقدمة. وقد أحسن كاتبها في مراعاة المقام لو لا ما في كتابته من قليل الغلط النحوي والصرفي. وما يتخللها من روح النقد العتيقة احتذى بما امرسون وأشياعه من متصوفة الامريكان.[١١]

ثم يقول عن القصيدة ومكانتها:

"أما القصيدة فليس في استطاعنا أن نسميها شعرا صحيحا كما وصفها صاحب المقدمة وان كنا نتبين منها أن ناظمها يفكر تفكير شاعر وأول ما نشير إليه القصيدة ليس مما يوصف بالصحة لما فيها من الخطأ اللغوي وما يعتورها من ضعف التركيب وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية في أبياتها وقد فتحنا الكتاب فوجدنا في شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل في قوله:

(الخير في الناس مصنوع إذا جبروا)

يريد أجبر. ولم ننته من الصفحة إلا على خطأ ثان في قوله:

فأفضل الناس قطعان يسيرها

صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

والواجب جزم (يندثر) في هذا البيت. وهذا وليس في الصفحة إلا أربعة أبيات ولا نشك في أن ناظم القصيدة كان يحترس من الوقوع في مثل هذا الخطأ لو كتب بإحدى اللغات الغربية فالاحتراس في الكتاب العربية أولى"[١٢]

ثم ينقد العقاد على معنى القصيدة ويقول:

"أما المعنى فمعيار صحته عندنا أن يكون موافقا للفطرة الصحيحة والطبيعة الصادقة ولا نرى معاني الناظم كذلك. نعم إن صاحب المقدمة يقول إنه أي الناظم متمرد على الحياة نفسها ولكن التمرد على الحياة لا يدل في كل حالة على رغبة في حياة أسمى وأفضل وكثيرا ما يدل على انتصار المتمرد لجانب الموت والفوضى على جانب الحيات والمثل الاعلى. خصوصا إذا لم يكن التمرد مبنيا على أساس من الشعور الصميم بقوانين الحياة

الراسخة في دخائل الطباع وأعماق الاحساس. ونرجح مما قرأنا في مواكب الناظم أن تمرده على الحياة من هذا النوع لأنه كما يقول صاحب المقدمة " أما الغاب يقصدها في قصيدته فليست غابا بمعناها الضيق بل هي الطبيعة بأسرها"[١٣]

ثم ينصح العقاد جبران في آخر هذه المقالة:

" وعندنا أنه لو طرق باب الشعر المنثور لكان أنسح مجالا لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون وحبذا لو أقل من المعاني الرمزية فإنها بقية من إبهام الكهان الأقدمين لا يقبلها في العصور الحديثة الا أشباه الكهان فيها تصرم من العصور"[١٤]

آراء في دفاع جبران:

يقوم محمد مندور (١٩٠٧-١٩٦٥) بمدافعة جبران ويرَد بعض آراء العقاد بقوله:

" أخذنا على شعراء المهجر ما نسميه ضعف اللغة العربية في أسلوبهم وهذه تهمة أن تقلع عنها لأنني كلما أمنعت النظر في ألفاظهم وتراكيبهم لم أجد لها مشيدا في شعرنا الحديث من حيث الرقة والقدوة على أثاره الاحساس إن أخطأوا في الصرف والنحو فهذه أشياء نادرة نظائرها عند أكبر الكتاب أنما الذي يجيب الأسلوب عدم التحديد والعجز عن الإحياء وتلك عيوب لا وجود لها في شعرهم"[١٥]

وحينما كتب العقاد مقالة في نقد المواكب وقد كشف في نقده عن أخطاء

لغوية اغراف في الفطرة والطبيعة الشاعرية والخيال السليم أرسلت "مي" إليه وهو في أسوان تقول بعد ديباجة والتحيات.

" وقد لاحظت قسوتك علي جبران خليل جبران وان كنت أوافقك على بعض ما قلت وأعارضك في البعض الآخر ولا تستع هذه الرسالة لأن أقول لك ما أوافقك عليه وما أعارضك فيه أترك ذلك لفرصة أخرى.... وإلى لقاء قريب" (مي)[١٦]

وخلاصة البحث أن جبران له أثر كبير على الشعر العربي الحديث فسار الأدباء والشعراء على طريقته الشعرية لا ندافع عن الاتهام أن في شعره بعض الأخطاء النحوية والتراكيب الضعيفة غير أن هذه الأخطاء ليست ذا حظوة فنية ولكن المواكب لا تزال متوفقة كما يقول الاستاذ وديع ديب.

"وإنما القيمة كلها في القصيدة الرمزية بألفاظها وخطوطها ورسومها والتي لم يكن من الأمر الحبر على أن أفهم رموزها لولا الاستعانة بزميله وصاحبه ميخائيل نعيمة. ثم هي قصيدة عالية الرسلة نبيلة القصد لا يضيرها أن يخفق صاحبها في اخراجها اللغوي بعض الاخفاق أن للحن بعض الشيء هو الذي عاش في بلاد يصح بها قول المتنبي.

ولكـــن الفتـــى العربـــي فيهـــا غريـب الوجـه واليـد وللســان [١٧]

واعتقد ان ديب صادق في قوله فإن الموضوع والتكنيك في المواكب لا يزالان ذوا أهمية وهما اللذان يذودان كل تهمة عنه. ولم يكن جبران يجري على طريقة واحد في الكتابة فهو حينا يكتب خيالا عاطفيا مجردا وحينا أحاسيس واقفية عميقة وطورا يحاطب الناس بالأمثال والرموز والحكم المواعظ الروحية كما نجد في قصيدته الطويلة "المواكب" وهو الشاعر الذي تأثر الشعر العربي

الحديث وسار الشعراء على طريقة المتميزة.

الهوامش:

١. جبران خليل جبران، مؤلفات جبران خليل جبران (العربية)، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، الطبعة الاولى ٢٠٠٧ ص ٣٢١

٢. محمد يوسف كوكن، أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، المجلد الثاني، الطبعة الأولى. دار خلافة لطباعة والنشر.

٣. جبران خليل جبران، مؤلفات جبران خليل جبران، ص٣٢٤ .

٤. المصدر نفسه ص٢٤

٥. المصدر نفسه ص٣٣٣.

٦. المصدر نفسه ص٣٣٣ .

٧. المصدر نفسه ص ٣٣٥

٨. اياد نصار، أوراق الثقافة، المجلة الالكترونية، الثلثاء مارس ٢٤

٩. محمود عباس العقاد، الفصول، مطبع مشورات المكتبة العصرية. بيروت صيدا ص ٣٤-٥١

* * *